الطريق الى الحقيقة

للدكتور محمد يوسف موسى

استاذ الشريعة بجامعة عين شمس

الانسان طلعة بطبعه ، فهو فى تشوق دائم الى معرفة مايجهل ، وهو فى سعى دائب للتوصل الى مالا يعرف ، وكلما وصل الى شىء أو درجة من المعرفة تطلع الى ماوراءها ، حتى انه ليتشوق الى معرفة عالم الغيب وعالم الحس والشهادة معا ، ولكن هيهات أن يصل الى معرفة مايتطلع اليه !

وذلك لأن الانسان ، اذا ترك لنفسه ، لا وسيلة لديه للمعرفة الا الحواس والعقل ، فبالاولى يعرف مايبصره ، وما يسمعه ، وما يلمسه ، وما يذوقه ، وما يشمه ، وبعبارة جامعة يعرف مايقع تحت حسه وتجربته ، وبالعقل قد يستطيع ادراك مايفكر فيه وما يتدبره ، على أن يكون تفكيره سليما وقائما على منهج علمى ، من مقدمات لاريب فيها ، وأدلة صحيحة .

ولكن كيف لنا أن نثق بالحواس ومدركاتها ، وكثيرا ما يخدع الحس فيرينا حقا ما ليس بحق ! ان هذا مايلاحظه بنفسه كل منا ، هاهى ذى الشمس نراها تتحرك وتدور حول الارض ، ونراها فى حجمها شيئا ضئيلا جدا بالنسبة الى الرقعة الصغيرة التى نضطرب فيها من الارض . والواقع الذى أثبته العلم بالادلة التى لاتقبل الشك غير ذلك كله ، ثم هذه الارض نراها مبسوطة لاكروية ، على حين أن العلم أثبت أنها جسم كروى . وكذلك ينظر المرء الى الظل فيراه ساكنا لايتحرك ولا ينتقل ولا يزول ، وبعد حين يراه قد انتقل وزال تماما . فهكذا تخدعنا حاسة البصر ، وليست الحواس الاخرى بأحسن حالا ولا أوثق منها فيما تدركه .

وهذا العقل الانسانى ليس لنا كذلك أن نثق بكل مايؤدى اليه بواسطة تفكيره وأدلته ، مهما زعم الزاعمون الذين يثقون به ثقة مطلقة . ولعلنا لسنا فى حاجة لبيان هذا بايضاح ، فانه يكفينا أن نشير الى اختلاف الفلاسفة والمفكرين فى مختلف الازمنة والامكنة ، ومنذ وجد عقل وتفكير ، فيما وصلوا اليه وظنوا أنه الحقائق التى لا ريب فيها ، بل ان الفيلسوف أو المفكر الواحد يتغير من آرائه من حين الى حين ، ويعدل عما رآه حقا بالامس الى مايظنه هو الحق اليوم .

حتى القيم والحقائق الاخلاقية ، نرى الكثير منها يختلف باختلاف الشعوب والعصور والبيئات ، فكم من فضيلة هنا تعتبر رذيلة هناك ! وفى هذا يقول « باسكال — Pascal » المفكر الفرنسى المعروف : « لايوجد تقريبا شىء عادل أو غير عادل الا ويغير من صفته تغير اقليمه ، ثلاث درجات

فى الارتفاع الى القطب تقلب رأسا على عقب كل ما عرف من عدالة ، خط واحد من خطوط الزوال يتحكم فى الحقيقة والحكم الخلقى ، الحق له بيئاته وأعصره ، عدالة مضحكة هذه التى يحدها نهر ، حقيقة أمام جبال البرانس خطأ وضلال وراءها » !

ومن أجل هذا وذاك ، أى من أجل خداع الحواس وضلال العقل والفكر أحيانا ، وجد الشك القوى سبيله الى عقول كثير من الفلاسفة والمفكرين ، فمنهم من يئس من الوصول الى شىء من الحقيقة ، وصار شعاره فى الحياة: أنا شاك ، أنا لا أدرى ، وبهذا اتخذ « الشك » مذهبا له ، ومنهم من بحث عن مخرج من هذا الشك الذى كاد يستولى عليه ، وكان أن قيد ، الى طريق آمن سليم لاينال الشك ولا الريب منه ، وهؤلاء هم علماء الصوفية، وأوضح مثال لهؤلاء المفكرين الاعلام المتصوفة الامام أبو حامد الغزالى رضوان الله عليه .

انه وقد صار حجة الاسلام فى كثير من علومه ، وقد آمن بالقرآن - الذى يحض على طلب العلم والوصول الى المعرفة - حق الايمان وتعمقه كل التعمق ، هداه الله الى العلم الذى لا ريب فيه ، وسلك اليه الطريق الأمين الموصل الى المطلوب . أليس الله يقول فى كتابه العظيم : « اتقوا الله ويعلمكم الله » ، ويقول : « وعلمناه من لدنا علما » ، ويقول : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين » !

وقد جاهد الامام الغزالى جهادا عظيما عنيفا صادقا حتى وصل الىماوصل اليه ، وحتى انفتح له طريق الحق الذى لامرية فيه على مصراعيه ، وبذلك نال الخير الاعلى أو السعادة الحقة . ولم يكن ذلك - كما يقول فى كتابه المنقذ من الضلال - بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الادلة فقد ضيق رحمة الله الواسعة .

ولما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن « الشرح » ومعناه فى قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » ، وقال : « هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب » ، فقيل : وما علامته ؟ فقال : « التجافى عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود » .. وهو النور الذى قال أيضا صلى الله عليه وسلم فيه : « ان الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره » . فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف ، وهو ينبجس فى القلب من الله فى بعض الأحايين ، ويجب انتظاره والترصد له أحيانا ، ولهذا يقول خاتم الانبياء والمرسلين : « ان لربكم فى أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » .

قلنا ان الغزالى ، ومثله كثير من المتصوفين الحقيقيين بهذا الوصف العظيم

وصل الى ما نسميه السعادة أو الخير الأعلى ، وهذا الخير لا ينال الا بضروب أخرى من الخير دونه ، ومن هذه الضروب مايسميه فى كتابه ميزان العمل الخيرات أو الفضائل التوفيقية ، وهى أربعة : هداية الله ، ورشـــده ، وتسديده ، وتأييده .

والهداية مبدأ الخيرات الاخرى التى ذكرها الغزالى بعـــدها ، على ثلاث مراتب : الاولى ، تعريف طريق الخير وطريق الشر ويتم بالعقل والوحى ، ولله علينا الحجة البالغة اذ يقول : « وهديناه النجدين » ، أى طريق الخير وطريق الشر . والثانية ، امداده للسالك طريق الخير بما يعينه على ماهـــو بسبيله ، وفى هذا يقول جل ذكره : « والذين اهتدوا زادهم هـــدى » ، والثالثة ، وهى المرتبة العليا ، النور الذى يشرق على بصيرة المرء متى صلح لذلك بمجاهدة نفسه ، فيهتدى به الى ماعز عليه معرفتـــه بالعقـــل النظرى وحده ، ولعل هذا ماعناه الله بقوله : « ان هدى الله هو الهـــدى » ، اذ أضاف هذا النوع من الهدى لنفسه ـ كما يقول الغزالى ـ ابانة لفضـــله ، دون الهدى الذى يكون بنظر العقل وحده .

والرشد والتسديد لابد منهما للوصول الى هذا الخير الاعلى أو السعادة الحقـــة ، لان الاول ضرب من عناية الله يوجـــه به العبد الســـالك للطـــريق الصحيح الى مافيه صلاحه وخيره ، وبالثانى تتوجه الارادة والحركات فعلا الى الغرض المطلوب . وكذلك التأييد لابد منه أيضا ، لانه تقوية للمرء على مايريد بلوغه من غاية تتعذر عليه ان لم يظفر من الله بهذا التأييد .

وهذه السعادة الحقيقية التى هى هدف المتصوف الحق ، والتى يصل اليها متى سلك الطريق الصحيح ، ليست فى اللذة أو اللذات التى يتطلع اليهـــا الجهال والقصيرو النظر ، بل هى وصـــول الانسان الى كماله الخـــاص به ، وهذا الكمال يكون بادراكه الحقائق الغيبية والامور الالهية على ماهى عليه ، هـــذه الحقائق التى يقف العقل حسيرا أمامها ، لا يملك الا أن يتخيلها أو يتصورها نوع تصور قد لا يكون من الحقيقة فى شىء .

وهذه السعادة أو الخير الاعلى قد تكون فى هذه الدنيا على سبيل الندور لمن سلك اليها طريقها ، وجعل نفسه أهـــلا لادراك هذه الحقائق العالية ، فتفيض عليه من الله كمـــا فاضت على الانبيـــاء والاوليـــاء والصـــديقين . وتفيضان هذه الرحمة من الله عز وجل على النفس غاية المطلوب ، وهو عين السعادة التى للنفس بعد الموت » ، كما يقول الامام الغزالى فى كتابه ميزان العمل .

« بعد ! ما الطريق الحق لبلوغ هذا الخير الاعلى الذى هو الغرض الاسمى من التصوف ؟ ان هذا الطريق أمران لاثالث لهما : عمـــل وعلم . العمـــل لتطهير النفس وتزكية الروح ، وذلك بترك مالا ينبغى أن يســـودها من

الشهوات التى تزين حب الدنيا ومفاتنها فتلفتها عن غايتها وكمالها ،والعلم لتحصيل مالا بد منه لهذا الكمال . وبعد هذا وذاك ، ليس على المريد الا الاستعداد والترصد والانتظار لفيض الله ، وبذلك انكشفت الامور للاولياء، وسعدت نفوسهم بنيل كمالها الممكن لها ، واتصلوا بالله عز وجل وبالملأ الاعلى ، وعرفوا الامور على حقائقها الخالصة .

على أنه ينبغى ، ونحن نتكلم عن منهاج الصوفية لبلوغ الانسان سعادته الحرى بها أو كماله الخاص به ، أن نلاحظ أن العلم الذى لابد منه للوصول الى هذا الخير الاعلى ليس هو العلم الذى أتعب فيه الفلاسفة أنفسهم وعقولهم ، بل هو العلم بشريعة الله ورسوله وما يتصل بها ، ومن هذا الضرب من العلم العلوم التى لابد منها لفهم الكون وعجائب خلق الله ومظاهر ومجالى حكمته وابداعه . فان من يجهل هذه العلوم ، ويزعم مع هذا انه متصوف ومن أرباب الحقيقة ، يكون واهما وخادعا لنفسه ، ومثل هؤلاء لاشأن لنا معهم ولا يدخلون فى حسابنا .

ومن أجل ذلك نرى القشيرى ، وهو من أئمة التصوف المعدودين ، يقول: « من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لايقتدى به فى هذا الامر ، لان علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة » .

والامام حجة الاسلام الغزالى حين ارتضى لنفسه طريق التصوف ، ورآه الطريق الوحيد للوصول الى الحق والى الخير الاعلى ، ورأى أن المتصوفة هم السالكون لطريق الله خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير – نقول ان الغزالى حين وصل الى هذا الرأى وارتضاه لنفسه وعمل به ، كان يعنى المتصوفة الحقيقيين الذين سلكوا طريق العمل والعلم معا ففازوا بما لم يفز به سواهم.

وما أحوج الامة الاسلامية فى مختلف أقطارها الى الكثير من هؤلاء ! انهم يكونون حقا الهداة الى الخير بعد أن صاروا مهديين ، والمرشدين لطريق الله بعد أن صاروا راشدين ، والاطباء للنفوس بعد أن صحت نفوسهم وطهرت قلوبهم ، وورثة الانبياء بعد أن آتاهم الله من لدنه علما لايفيض معينه . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول : « من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم » .

وفقنا الله للخير ، وهدانا الى الطريق المستقيم .

الدكتور محمد يوسف موسى